ملاحظات على

كتاب الرحَالة الغربيُون في الجزيرة العَربيّة

● د. عبدالله الصالح العثيمين ●

أثار موقع جزيرة العرب اهتمام الأوروبيين القدامى. فكان منهم من زارها ودوّن معلومات مفيدة عنها. غير أن الرحلات المتوالية لعدد من رحالتهم إلى الجزيرة بدأت منذ القرن السادس عشر الميلادي. وكانت أهداف هؤلاء الرحالة مختلفة، كما كانت كتاباتهم مختلفة، أيضاً، من حيث الحياد والجودة وغزارة المعلومات. وقد استفاد كثير من الباحثين المعاصرين في أوضاع الجزيرة العربية بكتابات أولئك الرحالة، خاصة عند مقارنتها بمصادر المعلومات الأخرى. ومن تلك الكتابات ما ترجم إلى اللغة العربية، ومنها ما درس دراسة جيدة وعرض عرضاً وافياً في بحوث ومقالات عديدة. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن حياة أولئك الرحالة وما قاموا به قد كتب عنهما عدد من المؤلفات، بعضها شامل لجميع الرحالة، وبعضها مقتصر على واحد منهم.

ولعلّ من أجود الكتابات عن الرحالة الغربيين في جزيرة العرب كتاب جاكلين بيرين «اكتشاف جزيرة العرب» الذي قام بترجمته إلى العربية الأستاذ قدري قلعجي، وكتب له مقدمة ضافية العلامة الشيخ حمد الجاسر. وقد نشر هذا الكتاب في بيروت قبل خمسة وعشرين عاماً.

ومن يين الكتابات التي كتبت عن الرحالة الغربيين في جزيرة العرب كتاب روبين بدول، الذي ترجمه إلى اللغة العربية الزميل الدكتور عبدالله آدم نصيف بعنوان: «الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية»، والذي هو مجال الحديث هنا(١) .

ولقد أحسن الدكتور عبدالله بتعليقه على بعض المسائل الواردة في كتاب المؤلف، لكنه لم يعلّق على مسائل أخرى كان من المستحسن التعليق عليها، كما سيتضح فيما بعد.

وقد ذكر الدكتور عبدالله في المقدمة القصيرة التي قدّم بها ترجمته للكتاب أن أحد العاملين اللذين دفعاه إلى هذه الترجمة اعتقاده أن من حق القارىء العربي أن يعرف ما قاله غيره عن بلاده. ولا شك أن وضع المعلومات التي كتبها أولئك الرحالة باللغة العربية من الأمور المفيدة لمن لا يجيدون اللغات التي كتبت بها أصلاً. على أن كتاب بدول ، بصفة عامة، ليس عما قاله الرحالة الغربيون عن جزيرة العرب، بل عن حياة أولئك الرحالة. وإذا وردت في حديثه عنهم إشارات أو مقتطفات لما شاهدوه فإنها إشارات ومقتطفات قليلة جداً. ولو كان الدكتور عبدالله يتحدث عن كتاب بيرين لكان حديثه مقارباً للواقع إلى حد ما. ذلك أن ما عرض في هذا الكتاب يعطي صورة لا بأس بها عما تضمنته أعمال الرحالة المذكورين. لكن كتاب بدول بعيد عما ذكره الدكتور عبدالله عنه بدرجة كبيرة. ومن يقارن بين كتابة كل من بيرين و بدول يدرك ذلك تمام الإدراك.

ومن الأمور الملفتة للنظر ما ذكره بدول من أن المقتطفات التي أوردها في كتابه مبنية على استحسانه الشخصي، وأنه اختارها لأنها مهمة أو مفيدة أو ممتعة. ثم أشار إلى أن أصدقاءه العرب قد لا يرضون عما ذكره في الكتاب من تلك المقتطفات، لكنه برّر ذكره لما قد لا يرضيهم بأنه ليس مسؤولاً عما ورد فيها أساساً.

والذي يتأمل ما اقتطفه بدول ، أو أشار إليه، من كتابات الرحالة الذين تكلم عنهم يرى أن بعض ما اختاره يشتمل على أمور من أسوأ ما ذكره أولئك الرحالة عن البلاد وأهلها، سواء كان ما ذكروه مطابقاً للواقع أم لا. واختيار بدول لذلك السيِّء دون تعليق ــ مع أن هذا الاختيار مبني على استحسانه الشخصي ــ أمر يثير التساؤل عن مصداقية ما يفهم من كلامه من أنه مهتم برضى أصدقائه العرب.

وإذا كان تتبّع ما ورد في كتاب بدول من أخطاء لم تحظ بتعليق الدكتور عبدالله أمر يطول على قارىء هذه الملاحظات فإن الإشارة إلى بعض الأخطاء الواردة في حديث المؤلف عن جغرافية جزيرة العرب وتاريخها بشكل خاص يعطي الدليل على ما في الكتاب

من أمور تحتاج إلى تعليق وإيضاح.

١ — ورد في الكتاب (ص٩) : هناك قصة مشهورة مفادها أن أحد الفاتحين لصنعاء انتهز فرصة هطول الأمطار الغزيرة عليها فحوّل صحن مسجدها إلى مسبح، وأجبر العذارى على أن يسبحن فيه عاريات. وما ورد هنا يحتاج إلى توثيق وإيضاح من الدكتور عبدالله. هل ما ذكر صحيح ؟ وإن كان صحيحاً فمتى حدث ؟ ومن هو ذلك الفاتح ؟

٢ — ورد في الكتاب (ص ص ١٠ – ١١) عند الحديث عن دخول الحجاز تحت حكم العثمانيين أن السلطان العثماني أخذ على عاتقه مسؤولية أمن الحج، وأقام حاميات عسكرية على طريق مكة والمدينة. لكن العثمانيين لم يقوموا بمحاولة جادة لحكم جزيرة العرب.

ومن المعلوم تاريخياً أن العثمانيين لم يكتفوا بدخول الحجاز تحت حكمهم؛ بل قاموا بالاستيلاء على اليمن، ثم قاموا بالاستيلاء على شرقي الجزيرة العربية في الفترة التالية لدخول الحجاز في طاعتهم.

٣ — ورد في الكتاب (ص ١٣) : «أن الدرعية كانت من بين القرى الصغيرة (في نجد) غير أنها منذ القرن السادس عشر أصبحت تابعة لحكم العائلة السعودية. وتقع هذه القرية على بعد سبعة أميال من مدينة الرياض الحالية».

ومن المعلوم أن استقرار أسلاف آل سعود في المكان الذي سمّوه فيما بعد الدرعية حدث عام ٨٥٠هـ (١٤٤٦م)؛ أي قبل منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. وممن ذكر ذلك التاريخ ابن عيسى الذي رجع إليه الدكتور عبدالله في تعليقاته(١).

٤ — ورد في الكتاب (ص ١٣): «وكان محمد بن عبدالوهاب شخصاً مؤمناً متحمساً، وعزا كل المفاسد والشرور التي كانت سائدة آنذاك إلى ابتعاد الناس عن عقيدة آبائهم وأجدادهم الطاهرة، وأن كل البدع التي جاءت بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلم، حتى شرب القهوة والتدخين، تعتبر خطأً وكفراً».

ومن يعد إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه قال: إن ابن عبدالوهاب كان متحمساً مشبوب العاطفة، ويجد أنه لم يقل: «الابتعاد عن عقيدة الآباء والأجداد»، بل قال: الابتعاد عن أعمال سلفهم Practices of their

ancestors. ومعلوم أن هناك فرقاً بين العقيدة Belief أو Faith وبين الأعمال Practices. والتعبير بالسلف Ancestors قد يعني ما هو متعارف عليه حينما تطلق هذه الكلمة في ميدان الدراسات الإسلامية، فيكون المراد بها السلف الصالح. وقد دعا ابن عبدالوهاب إلى التمسك بما كان عليه السلف، أي السلف الصالح من الأمة الإسلامية. ولم يدع إلى التمسك بما كان عليه آباء معاصريه. ذلك أن أكثر هؤلاء الآباء كانت عقائدهم وأعمالهم محل انتقاد من الشيخ محمد وأتباعه.

ولقد أحسن الدكتور عبدالله عندما صحح في الهامش ما ذكره «بدول» عن مسألة شرب القهوة. لكنه لم يوضح الأمر بالنسبة للتدخين. فمن المعروف أن الشيخ محمداً وأتباعه لم يحرّموا التدخين على أساس أنه بدعة، كما ذكر «بدول» جهلاً. بل يحرمونه لأنه من الخبائث، ولأنه إتلاف للمال ومضرة للجسد(٢).

ومن يعد إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه قال:إن ابن عبدالوهاب يعد التدخين خطأً وإثماً. ومن المعلوم أنه ليس كل إثم كفراً. وليس من المعقول أن يقول ابن عبدالوهاب ـــ وهو العالم الجليل ـــ بأن التدخين كفر.

٥ ـــ ورد في الكتاب (ص ١٤): أن ابن عبدالوهاب أقنع أهل الدرعية بأن كل من عارضه كافر يجب قتاله ومصادرة أمواله.

ولقد كان حرياً بالدكتور عبدالله ألّا يترك هذه المسألة الخطيرة بدون ما تستحقه من تعليق وإيضاح. هل كان ابن عبدالوهاب يعدّ كل من خالفه في أية مسألة من مسائل أصول الدين أو فروعه كافراً؟

إن ابن عبدالوهاب كان يرى أنه يجب ألّا يكفّر أي إنسان إلا بعد معرفته للتوحيد وإصراره على العمل ضده، ولا يجوز إخراجه من الإسلام قبل قيام الحجة عليه(٣).

٦ ـــ ورد في الكتاب (ص ١٤): «وكان هذا ـــ يعني موقف ابن عبدالوهاب ـــ حافزاً مهمّاً دفع الكثير من أتباعه إلى المشاركة بالجهاد في أكثر من خمس وعشرين معركة في غضون خمس سنوات. وقد كان أتباع محمد بن عبدالوهاب يسمّون أنفسهم بالسلفيين».

ومن يرجع إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه قال: «ليس هناك ما يجد ترحيباً أكثر من إجازة للنهب باسم الدين. ولهذا فإن أتباع ابن عبدالوهاب، الذين يسمّون أنفسهم بالموحدين Unitarians...، استغلوا ذلك تمام الاستغلال، فقاموا بخمس وعشرين غزوة خلال خمس سنوات».

وواضح ما في العبارات السابقة من أمور تحتاج إلى تعليق.

٧ ــ ورد في الكتاب (ص ١٤): «أخذ عميد أسرة آل سعود، عبدالعزيز، لقب إمام. وبهذا أصبح من المحتم أن تبدأ الخصومة بينه وبين شريف مكة، إذ أن كلاً منهما اعتبر الآخر مهرطقاً خطراً».

والكلام السابق يجعل اتخاذ عبدالعزيز بن محمد لقب إمام ــ هذا إن ثبت تاريخياً اتخاذه اللقب المذكور ــ سبباً لقيام خصومة بينه وبين شريف مكة. ومن يقرأ التاريخ السعودي يجد أن الخلاف بين آل سعود وبين أشراف مكة حدث قبل تولّي عبدالعزيز بن محمد الحكم بسنين. فهو لم يتولّ الحكم إلا سنة ١١٧٩هـ. ومن الثابت تاريخياً أن علماء مكة أفتوا بكفر ابن عبدالوهاب، وأن شريف مكة سجن أتباعه عام ١١٦٢هـ، ثم منعهم من تأدية الحج. واستمر أشراف مكة في موقفهم العدائي من دعوة الشيخ محمد وأنصاره رغم محاولات هؤلاء التودد إلى أولئك الأشراف. ثم بدأ الأشراف اعتداءاتهم العسكرية عام ١٢٠٥هـ عندما أدركوا نجاح آل سعود في توحيد نجد واقترابهم من توحيد الأحساء معها(٤).

وبذلك يتضح أن ما ذكره بدول لا يقوم على أي أساس تاريخي.

٨ ــ ورد في الكتاب (ص ١٤): «وقد وقع بين الجانبين (آل سعود والأشراف) عدد من المصادمات. ففي صيف عام ١٨٠٢م دخلت قوات [الإمام] عبدالعزيز بن سعود مدينة مكة. وقبل إنسحابه أمر بإعدام بعض الدجالين المسيئين إلى الدين».

ومن يرجع إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه يقول: «وقد حدثت عدة مناوشات (بين الطرفين) من قبل. ففي صيف عام ١٨٠٢م إحتل عبدالعزيز بن سعود البلدة المقدسة حيث أعدم عدداً من علماء الدين الأكثر سوءاً قبل انسحابه منها».

وما ذكره بدول هنا يشتمل على عدة أخطاء :

أ ـ يفهم من عبارته السابقة أن الاشتباكات العسكرية بين آل سعود وبين الأشراف بدأت صيف عام ١٨٠٢م (١٢١٨هـ). وهذا غير صحيح. ذلك أن الاشتباكات بينهما بدأت حين قام الشريف غالب بتجهيز حملة عسكرية ضد نجد عام ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م). كما ذكر سابقاً.

ب ـ إن دخول القوات السعودية مكة كان في الثامن من محرم سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣م). وكانت بقيادة سعود بن عبدالعزيز لا بقيادة عبدالعزيز نفسه(٥). بل إن عبدالعزيز لم يترأس أية غزوة ضد أية منطقة بعد عام ١١٨٩هـ (١٧٧٥م).

جـ ـ كان دخول سعود مكة دون قتال، ولم يقم بقتل أي عالم من علمائها(٦).

٩ ـ ورد في الكتاب (ص ١٤): «وفي عام ١٨٠٦م عادت القوات السعودية بقيادة ولده (أي ولد عبدالعزيز) إلى مدينة مكة مرة أخرى ثم إلى المدينة. وعلى إثر ذلك أوعز السلطان محمود الثاني إلى واليه على مصر محمد علي للتدخل وحسم الأمر».

ومن يرجع إلى كتابة بدول نفسه يجده يقول: «وفي عام ١٨٠٦م أعاد ابنه سعود احتلال مكة، واحتل المدينة، آذناً (لأتباعه) بنهب البلدتين. وقد منع الحجاج القادمين من الشمال من الحج مدعياً أنهم لم يكونوا مسلمين حقيقيين. وهذا ما دفع الامبراطورية العثمانية إلى أن تتحرك. فطلب السلطان محمود الثاني من واليه في مصر، محمد علي باشا، أن يتدخل».

وواضحٌ أن الدكتور عبدالله لم يترجم كل ما قاله بدول هنا، ولم يضع ما يشير إلى أنه حذف شيئاً من قوله. على أن الأكثر أهمية هو ما ذكره بدول . فقد ادّعى أن سعود بن عبدالعزيز أذن لأتباعه بنهب مكة والمدينة. وهذا لم يحدث. وادّعى أن سعوداً منع الحجاج القادمين من الشمال من الحج على أساس أنهم غير مسلمين حقيقيين. والواقع أنه منعهم لأنهم لم يتقيدوا بما طلبه منهم من عدم الإتيان بالمحمل، الذي كان يعدّه من البدع، وعدم القدوم بجيش معهم لأن مثل هذا الجيش كان يخشى أن يتدخل في شؤون الحجاز.

ومن المعلوم تاريخياً أن الدولة العثمانية سبق أن تحركت ضد ال سعود قبل دخولهم الحجاز. فقد أرسلت إليهم حملتين عسكريتين من ولايتها في العراق، إحداهما عام ١٢١١هـ (١٧٩٧م)، والأخرى عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م)(٦). على أن دخول الحجاز تحت الحكم السعودي زاد الدولة العثمانية تصميماً على محاربتهم.

١٠ — ورد في الكتاب (ص ١٥): «أن تركي بن عبدالله آل سعود استطاع أن يستعيد مدينة الرياض مرة أخرى، ويعيد غالبية بلاد نجد إلى سلطة آل سعود. ولكن في شهر مايو عام ١٨٣٤م اغتيل تركي بيد أحد أقاربه، والذي حكم لمدة ٤٠ يوماً فقط ، حيث استطاع فيصل بن تركي أن يتسلق أسوار القصر ويقطع حنجرة قاتل أبيه».

والواقع أن حكم تركي بن عبدالله لم يقتصر على غالب بلدان نجد. ذلك أنه وحّد منطقة نجد كلها، ووحّد معها منطقة الأحساء، وامتد نفوذه إلى كثير مما أصبح الآن الإمارات العربية المتحدة. ومن المعلوم أن فيصل بن تركي لم يتسلّق أسوار القصر للقضاء على مشاري بن عبدالرحمن، الذي دبّر مؤامرة أدّت إلى اغتيال تركي بن عبدالله، بل قام بذلك نيابة عنه عدد من رجاله الشجعان في طليعتهم عبدالله بن رشيد. وقد قتل مشاري داخل القصر برصاص البنادق. ولعلّ أحسن مصدر تناول هذه الحادثة ابن بشر، الذي كان معاصراً لها(٧).

١١ — ورد في الكتاب (ص ١٦): أن الجيش المصري زحف على نجد مرة أخرى عام ١٨٣٨م، وقبض على فيصل، وأخذه أسيراً إلى القاهرة.

أما القبض على فيصل، أو استسلامه لقائد قوات محمد علي فقد وقع عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ). لكن بداية زحف تلك القوات صوب نجد كانت عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ)(٨).

١٢ — ورد في الكتاب (ص ١٦): أن طلال بن عبدالله بن رشيد «بقي يظهر ولاءه للإمام عبدالله، الذي تولّى الإمارة السعودية بعد وفاة أبيه فيصل، ولكن في عام ١٨٦٧م انتحر طلال.. وبعد وفاة طلال تقلّد الإمارة أخوه متعب الذي حكم لمدة أربع سنوات.. ثم اغتيل من قبل أولاد أخيه.. فتسلم الحكم بندر، لكنه لم يبق سوى بضعة أشهر».

وبالرجوع إلى ابن عيسى في كتاب « **عقد الدرر** ».. يتضح أن طلال بن رشيد انتحر عام ١٢٨٣هـ، أي بعد وفاة فيصل بعام، وأن أخاه متعباً قتل عام ١٢٨٥هـ، أي بعد انتحار أخيه بعامين، وأن بندراً لم يقتل إلا عام ١٢٨٩هـ، أي بعد توليه الإمارة بأربع سنين(٩).

١٣ — ورد في الكتاب (ص ١٦): «تمرد سعود أصغر أبناء فيصل على أخيه عبدالله».

ومعلوم أن سعوداً لم يكن أصغر أبناء فيصل. ذلك أن عبدالرحمن — مثلاً — كان أصغر منه. على أن عبارة بدول نفسه لا يفهم منها أن سعوداً أصغر أبناء فيصل، بل يفهم منها أنه أصغر من أخيه عبدالله فقط. وهذا صحيح.

١٤ — ورد في الكتاب (ص ١٧): «ففي يناير من عام ١٩٠٢م استعاد عبدالعزيز بن سعود — وكان عمره حينذاك ثماني عشرة سنة — مدينة الرياض مع سبعة من رفاقه».

والمرجح أن الملك عبدالعزيز ولد عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م). فيكون عمره عند دخوله الرياض حوالي ستة وعشرين عاماً. ولو قبلت الرواية التي تفيد أنه ولد عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) لكان عمره عند دخوله الرياض اثنين وعشرين عاماً، لا ثماني عشرة سنة.

ومن المعلوم أن الملك عبدالعزيز تسلّل إلى داخل الرياض مع ستة أو سبعة من رفاقه، لكنه لم يستول على قلعتها إلا بعد أن التحق به آخرون من أتباعه حتى وصل عدد الجميع إلى أربعين رجلاً تقريباً(١٠).

١٥ — ورد في الكتاب (ص ١٨): «بينما كان منافسو ابن سعود يمزقون أنفسهم كان هو يعمل على تقوية مركزه. فبعد عام ١٩١٢م كان لابن سعود سلاح فعّال وهو الإخوان.. وفي وقت مبكر من عام ١٩١٤م استطاع الإخوان أن يطردوا الأتراك من الأحساء. ولم تأخذ تلك العملية إلا أياماً معدودات».

ومن المعروف أن الإخوان لم يصبحوا سلاحاً فعّالاً للملك عبدالعزيز إلا بعد دخول الأحساء تحت حكمه، لا قبل ذلك. ومن المعروف، أيضاً، أن جيشه من الحاضرة بشكل خاص هم الذين قاموا بدخول الأحساء تحت قيادته الشخصية(١١).

١٦ — ورد في الكتاب (ص ١٩): بعد دخول الإخوان مكة بقليل تنازل الملك حسين عن العرش وغادر البلاد.

> والواقع أن تنازل الحسين عن العرش تمّ قبل دخول الإخوان مكة، لا بعده، إذ تنازل مساء اليوم الرابع من ربيع الأوّل عام ١٣٤٣هـ، وغادر البلاد في اليوم السادس عشر من ذلك الشهر، في حين دخل الإخوان مكة في السابع عشر من الشهر المذكور(١٢).

ومما سبق ذكره في هذه الملاحظات يتبين أن ما كتبه بدول مقدمة عن جزيرة العرب لا يضيف جديداً إلى ما هو معروف عنها من معلومات، بل يشتمل على كثير من الأخطاء، ويتضح أن بقية ما دوّنه في كتابه مركَّز على حياة الرحالة الغربيين في جزيرة العرب، لكنه يقلّ جودة عما في كتاب جاكلين بيرين، وأن فيه مسائل غير قليلة تحتاج إلى تعليق وإيضاح.

على أن الدكتور عبدالله نصيف قد قام بما يستحق عليه الشكر، وهو قادر ــ إن شاء الله ــ على أن يتلافى عند إعادة طبع الكتاب ما يرى أن تلافيه يزيد من عمله دقة وفائدة.

• • •

• المصـــادر •

١ ــ نشر كتاب «بدول» Travelers in Arabia في لندن سنة ١٩٧٦م. ونشر ترجمة له الدكتور عبدالله نصيف في الرياض عام ١٤٠٩هـ.

٢ ــ انظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، القاهرة، ١٣٤٤هـ ، ج ١، ص ٦٥٢.

٣ ــ انظر ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، القاهرة، ١٩٤٩م، ج ١، ص ١٠٨.

٤ ــ ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، طبعته وزارة المعارف، ١٣٩١هـ، ج أ، ص ص ٣٧ و١٠٧. دحلان، خلاصة الكلام...، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ج ٢، ص ٢٢٧.

٥ ــ ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٦٤ ــ ١٦٥، دحلان، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ٢٧٧ ــ ٢٧٩.

٦ ــ ابن غنام، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ١٨٦ ــ ١٨٧، ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٣٨ ــ ١٥٧.

٧ ــ ابن بشر، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ٦٤ ــ ٦٨.

٨ ــ المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٨٨ ــ ١٠٧.

٩ ــ عقد الدرر.. طبع ذيلاً لتاريخ ابن بشر المذكور سابقاً، ص ص ٤٩، ٥٢، ٦٢ و ٧٤.

١٠ ــ الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، بيروت، ١٣٩٠هـ ، ج ١، ص ص ٥٨، ٨٨ ــ ٩٦.

١١ ــ المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٤، ابن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، الرياض، ١٣٨٠هـ ، ص ص ٩٨ ــ ١٠٢.

١٢ ــ الزركلي، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣.